زجلية على خراب طرابلس

واخذها من يد الصليبيين

نشرها حضرة الخوري ابراهيم حرفوش المرسل اللبناني

توطئة

مما عثر عليهِ حضرة الاب المدقق الخوري يوحنا هارون السبعلي المرسل اللبناني اثناء تجوُّلهِ للرسالة في بلاد جبيل والبترون كتاب خطي اودعهُ ناسخهُ مواضيع متنوعة على طريقة النساخ في بلادنا قبل شيوع المطابع فمن ذلك زجليات لابن القلاعي الشهير وزجلية لرجل اسمهُ سليمان من اشلوح (كذا يدعو ذاتهُ) اما اشلوح فهل ما يظهر قريةٌ من جهات طرابلس الّا اننا لم نتحقق موقعها ولعلَّها اليوم قد خربت. وقد ضمَّن هذه الزجلية المؤلفة من ستين بيتاً تفاصيل خراب طرابلس واخذها عنوة من يد الافرنج بعد ان ملكوها نحوًا من مئة وثمانين سنة. واتفق اني اخذت اطالع الكتاب الخطي المشار اليهِ الذي كان استنسخهُ حضرة الاب السبعلي فاوقفت افكاري زجلية سليمان الاشلوحي لاسباب منها دقَّة الشاعر في وصفه فتح المدينة وتاريخ اليوم الذي نُكبت فيهِ ووصف بناياتها وكنائسها وتجارها من البيزان والجنويين اي اهل بيزة (Pise) وجنوة (Gênes) وغير ذلك من الامور التي ترجح ان الشاعر معاصر للحادثة او قريب العهد منها ولا اقلَّ من انهُ كان ذا اطلاع اذ طبَّق وصفهُ وروايتهُ على ما رواهُ المؤرخون من عرب وافرنج كما سنرى. وقد تمَّ هذا الفتح على يد الملك المنصور سيف الدين قلاوون احد ملوك مصر من دولة المماليك البحريين الاتراك يوم الثلثاء رابع ربيع الآخر سنة ٦٨٨ (٢٧ نيسان ١٢٨٩). اما وزن الزجلية فيقرب على ما يظهر من البحر البسيط وان كان الشاعر لا يراعيهِ ابدًا لجهلهِ العروض ولجهلهِ العربية وقواعدها فاتبع القطرة الشرعية دون مراعاة الاوزان التفاعيل فتدبَّر بالروي والقافية كما اراد فكسر الفعل الماضي مثلاً (كان) وعلَّم جزمًا مراعاة للقافية التي مقرها وهي النون المكسورة. ويظهر ان الشاعر ملكي المذهب لان وصفهُ الكنائس وزينتها ومنابرها في شعرهِ ينطبق على الطقس الشرقي الروم الملكي كما يلوح لدى المطالعة. وعليهِ فقد احببنا ان نزفَّ هذه الزجلية لمجلَّة المشرق الغرَّاء كثر فريد لانَّها اقدم زجليَّة لبنانيَّة نعرفها. ونستميح من قرَّائنا الكرام غض الطرف عمَّا يجدونهُ من التقصير وعلى الله الاتكال

الزجليَّة

١ يا حزن قلبي وما يخلى من احزانِ والقلب من الحزن شاعل بنيرانِ

٢ في طرابلس كان بدء القول يا حزني والقول من قبل هذا الشرح قد خانِ
٣ كان النصارى في كل الارض خيرهمُ وما بقي لهمُ ذكر ولا شانِ
٤ فقد تغلغلوا في البلدان وافترقوا في مصر في الشام في غزّه وحورانِ
٥ في بعلبك الى حمص الى حلب الى المعرّة بل في اقصى بلدانِ (١
٦ الشمس تبكي عليهم كلما طلعت والبدرُ والنجم غرّار ومـيزانِ
٧ يا عينِ خلي البكا والنوح عادتك وابكِ على النصارى اين مـا كانِ
٨ وان بكيتُ فدمع العين محترق وان كتمت البكا في القلب نيرانِ
٩ قالت ليَ الناس يا مسكين مالكَ تبـ كي قلت يا اخوتي أقلب تعبانِ
١٠ ابكي النصارى ابكي ما جرى بهمِ يوم الثلثاء يوم الشوم قد كانِ (٢
١١ قد دخل الترك في الاسواق هاجمةً في البرّ والبحر حاطوها بن كانِ (٣
١٢ معهم سيوف تقدُّ الصخر اذ جُردت صرّعت القتلى فوق الارض كدسانِ
١٣ كم فارس قتلوه من بعـد سطوتهِ مضى محضّر على الاولاد حـرانِ
١٤ ما عدت تعرفهُ حتى تقلّبهُ تقول لا ادري شلوٌ ام جثة انسانِ
١٥ كم شابّ قتلوه وامـه تنظره ويقول يا ميتي ذا اليوم من اين جاني

١) قال المؤرخون ان عكّا التي زمت الميادة بأبان نكبة طرابلس لم تسلم بالرزية الّا ممّن هرب من هذه المدينة التعيسة طالبًا الاحتماء ضمن اسوارها ومنذ ذاك الحين اوجست عكا ان يلمّ بها ما الم بشقيقتها طرابلس . ولم تطل مدة الانتظار

٢) اجمع المؤرخون على القول بان طرابلس وقعت في يد قلاوون في ٢٧ نيسان سنة ١٢٨٩ وهو يوافق يوم الثلثا عملا بالقاعدة الحسابية المثبتة في تقويم البشير الصفحة الاربعين ومما تقدم يظهر ان سليمان كان يكتب لمعاصرين اشتهر عندهم ذاك اليوم كما نقول في لبنان « سنة السنين » لاشتهار الحادثة عندنا وقربها منا فتأمل

٣) قال ميشو (Michaud) في كتابه الثامن عشر في حروب الصليبين . « حمل السلطان قلاوون على مدينة طرابلس ومعهُ سبعة عشر آلة للحصار الضخمة العظيمة وظنها (المجانيق) وعهد الى ١٥٠٠ عامل بهدم السور واعمال النار اليونانية (feu grégeois) وبعد ٣٥ يومًا من حصارها دخلها واسلمها للسيف والنار وباع النساء والاطفال بابخس الاثمان » . وعلى ذلك يطابق ما اوردهُ سليمان الاشلوحي من الشعر الحادي عشر الى الرابع والعشرين كما هو ظاهر في غير محالّ من قصيدته . اما قولهُ « الترك » فلأن دولة المماليك البحريين كانوا اتراكًا كما سبق . ولعلّهُ اراد بقوله « حاطوها بن كان » اي احاطوها بالآلات والمنجنيقات

١٦ تقول ولدي حبيبي ما تكلمني يا نور عيني وما لي فيك سلطانِ
١٧ كم طفل امسى يتيم وامه تنظره يبكي محسّرًا على بزّه جيفاني
١٨ وقد نهبوا الحريم اليوم يا حزني بنات وابكار مع نسا وصبيانِ
١٩ كم بنيّة سحبوها بعقصها وتقول يا ميتي ذا اليوم من اين جاني
٢٠ لا مهر يُكتب ولا قسّ يكلّلني تخاطفوني وما اعلم مَن يتلقاني
٢١ وكم مليحةٍ اخذوها قبل ما طلعت فراح يذهب بها للسّوق عجلاني
٢٢ يبيعها ويتخرج في دراهمها والدمع نازل على الخدين غدراني
٢٣ وتقول يا خالقي ترضى بما فعلوا من بعد عزي وخيراتي وغلماني
٢٤ امسيت وحدي وكل مَن جا ينتشني باعوا الاسارى كبيع الشاة والضانِ
٢٥ الارض تبكي ونور الشمس منخسف والبدر قال لسكتوا اذا حكم رباني
٢٦ هذه المدينة اريد اليوم اخربها اجعل مسكنها للبوم لوطانِ
٢٧ من كان يصدق ان طرابلس تخرب لولا تراها ونتظرها بأعيانِ
٢٨ يا حيف تلك العلالي تصير منهدمة وما بقى لها اثرًا ولا حيطانِ (١
٢٩ قد كان لها سورًا شامخًا جدًا وما كان لهُ على الارض شبهٌ ولا ثاني
٣٠ فتُّ القصر ولقيت الويل طامرهُ اسود وطالع من الاطواق دخانِ
٣١ وبكيت لمّا رأيت الدار خالية وما ان كان بتلك الدار سكانِ
٣٢ قلت يا دار البرنس ڤي ماذا بكِ اصبح فيك وما اخطى بانسانِ
٣٣ يا حيف على البرنس يا حيف سطوتهُ جواري تخدمه وعبيد سودانِ (٢

---

١) كانت طرابلس محور التجارة في ايام الافرنج وكانت ميناها حافلة بمراكب التجار وكان فيها اكثر من اربعة الاف حرفة وصنعة من انواع صنعة الحرير (طالع ما نقلهُ ميشو عن يعقوب دي ڤيتري (Jacques de Vitry) في وصفهِ مباني المدينة في كتابهِ الاوّل عدد ٣٣ وماريز سانوتي (M. Sanuti) في كتابهِ الثالث الجزء السادس الفصل ١١ و١٨ . هذا وقد امر قلاوون فدكّت المدينة الى الحضيض ولم يبقَ على شيءٍ من مبانيها

٢) كان البرنس بوهيموند السابع (Boémond VII) امير طرابلس مات قبل فتح المدينة بمدة قريبة في ١٩ ت ١ سنة ١٢٨٧ وعقب موتهُ تنازع شديد بين والدتهِ وشقيقتهِ لوميًا على حقوق الامارة وشايع السكان احدى الاميرتين فساد التحزّب والانقسام فضعف امر الاميرتين

٣٤ قد جاوبتني دار الشوم قائلة فرّقهم الدهر بئس الدهر ما كانِ
٣٥ لانك ترى اهلي من قبل ما افترقوا كانوا شباباً يحاكوا زهر نيسانِ
٣٦ راحوا وما تركوا لي من يؤانسني الّا طيور السما بومٌ وغربانِ
٣٧ اما الكنائس فقد زادت على حزني اصبحت من اجلها بالهمّ سكرانِ
٣٨ عهدي بها وهي بالاعياد مرهجة الشمع ينورها والكاهن فرحانِ
٣٩ يبات يهيقرأ للانجيل منعكفاً وفي الصلوة يقضي الليل سهرانِ
٤٠ تجي الخلائق للاعياد تحضرها نسا وصبيان وشيوخ وشبانِ
٤١ ويدور الكاهن بالرياح بينهم في ريحة البان مع الندّ غزرانِ
٤٢ ترى الشمامسة كالاقمار واقفة في الكتاتين شبه الثلج كتّانِ
٤٣ يقروا المزامير والالحان يتلونها وحيّروا الناس في اصوات الحانِ
٤٤ يا حيف كراسيها مع حسن أنبلها (١ فيها التصاوير لشكال والوانِ
٤٥ فيها يوحنا الدمشقي كان يعجبني ومطران سروسيس (٢ ودير سمعانِ
٤٦ ما تنظر العين احسن من عمارتها قبّات مليحة فيها ختمُ سليمانِ
٤٧ لمّا التصاوير من فضة ومن ذهب درًّا ولؤلؤًا وياقوتاً ومرجانِ (٣
٤٨ فيهن عواميد رخام جيدة حسنة ما كان عملها الا كشمع عسلانِ
٤٩ كم كعاب تمشت في جوانبها وكم قامت كغصن من البانِ
٥٠ تمشي وتتمخطر في الحسن معجبة ويحير ناظرها باهت وحيرانِ
٥١ ومنية الشوم (؟) لا تنسى مودتها كم جنوي وكم من الف بيزانِ (٤

وفازت لوسيا وكان نائبها برتران من جبلة (Bertrand de Gibelet) وفي عهدها تمّ فتح طرابلس واغتنم الملك قلاوون هذه الفرصة لاخذ المدينة اذ حاول بيبرس من قبلهِ بعد اخذ انطاكية الاستيلاء عليها فلم يفلح فنال قلاوون بغيتهُ واعمل سيفهُ البتّار بسكّانها

١) الانبل من اليونانية (ἀναβολεύς) وهو الساجة او المنبر الذي يُقرأ عليهِ الانجيل

٢) كذا. لعلّهُ اراد مطران طرسوس

٣) قال المؤرخون ان قلاوون ربط الى اذناب الخيل التصاوير وجرّها في الاسواق. وهذه الاوصاف لهندسة الكنائس وصورها وانبلها وشماستها وتلحينهم المزامير كل ذلك يثبت ان الشاعر من الروم كما مرّ

٤) دسّ رئيس الميكليين لامير جبلة بان يضايق البيزان في طرابلس وينهبهم فاوغر ذلك

٥٢ والبعض منهم في الابحار اختنقوا وقد اكل لحمهم سمك وحيتان (١
٥٣ هذا قصيدي وهذه قصتي كملت في طرابلس يا اخوتي ذا القول اعماني
٥٤ يا حيف على البرنس يا حيف سطرته كأن ما كان لهم ذِكرٌ ولا شانِ
٥٥ حيفاً يقول الناس الله يرحمهم ويتنيحون في النعم على طول الزمانِ
٥٦ قائلها شاعر لشلوح مسكنه (٢ مشهور بين الورى لسمة سليمانِ
٥٧ هذه خبار من بعد ما انتجموا تمت عليهم وقد كان الذي كانِ
٥٨ تمّ ما قال اقليموس (٣ بحكمته قد يقنبوا لنا من كتب رهبانِ
٥٩ ان مدينة طرابلس تخرب ولا بدّ لخرابها من حكم رباني
٦٠ يا رب ارحم قايلها وكاتبها واغفر لسامعها ولكل نصراني

الأَمَل

لبشارة افندي ابراهيم رعد احد طلبة كلية القديس يوسف

أملٌ في القلب ألقتهُ الحياةْ وسلاحٌ ضدَّ ليلِ النائباتْ
كم صغيرٍ في حضن الأُمهاتْ يرضع الحبَّ لبانَ الوالداتْ
انّ قلب الام طيرٌ في الفضاء سابحٌ ما بين حزنٍ وهناء

صدرهم يومئذ عليه (طالع ميشو كتاب ١٨ في سرده حوادث سنة ١٣٨١ . وقال ابن فرات المؤرخ العربي بان يومئذٍ عمل على قتل امير جبلة)

١) قال ميشو حاول كثيرون من سكان طرابلس الهرب في المراكب فخانتهم الريح وارجعتهم الى الشاطئ فوجدوا منيتهم هناك . وهرب قسم من السكان الى جزيرة صنيرة تدعى جزيرة القديس تقولا . قال ابو الفدا انه زار هذه الجزيرة بذاته بعد ايام قلائل من فتح طرابلس فلم يجد فيها سوى جثث تنبث منها النتانة

٢) يشير الى بعض نبرّات تنسب الى القديس اقليميس البابا تلميذ مار بطرس الرسول

٣) اين هي اشلوح ؟ لعلها خربة قرية الان في جوار طرابلس وندع البحث للمطالعين